# عند رثاء التاريخ والمركزيات..
# من يشعر عن ثورات الشعوب؟

علي حسن الفواز

| ١ - ٢ |

**ربما ظل السؤال القديم عن "لماذائية" تأخر العرب وتقدم الآخرين الذي ردده الكثيرون من الباحثين والمؤرخين، عالقا منذ عقود طويلة أمام الكثير من يوميات مراثينا الثقافية، وفي سياقات البحث عن الشجون التي تحولت إلى مايشبه المازوخيا التي نقهر من خلالها ذواتنا المكسورة والمهروسة، وأحيانا أخذتنا إلى التلذذ بعناوينها الكبرى التي ترثي التاريخ، و(الأمة الخالدة) اوالتماهي مع استعادات الرغبة التعويضية لزماناتها الرومانسية الغاربة.**

هذا السؤال ظل مطروحا منذ عشرات السنين، غالى فيه البعض، أو هرب منه البعض الآخر، لكننا نسعى إلى إعادة طرحه ليقيننا أن ظاهرة التخلف والتقدّم هي ظواهر تاريخية، قابلة للفحص والمراجعة، مثلما هي قابلة للمعالجة في ضوء التعاطي مع الأسباب والظروف والمعطيات، وفي ضوء الانفتاح المتوازن والموضوعي على قيم الحداثة والسوق والعولمة والعلاقة الإنسانية مع الآخر، وفي إطار وجود إطار الدولة مؤسسة حمائية، وفي ظل استحقاقات الحريات والحقوق وقيم السلم الأهلي..

هذه الظاهرة تفترض بالمقابل أيضا وجود القراءات المعمقة والموضوعية التي تبحث في المسكوت عنه في تاريخ الدولة والجماعات، والذي تحولت الكثير من تداعياتها إلى أسباب أدّت إلى هذه النتائج المروعة، بعيدا عن التماهي القسري مع أوهام الحداثة، وأوهام الماضي، وبعيدا عن إنتاج المزيد من المراثي التاريخية لذواتنا المهووسة الآن بمثيولوجيات التاريخ وتخيلاته السردية، إذ تحولت هذه المراثي إلى جلد علني للذات، جلد شعري ولغوي وفقهي، وأخيرا جلد بصري، مثلما تحولت إلى مباهاة مفخمة وغير واقعية للذات القومية، دونما توافر على شروط وسياقات البحث العلمي والحقيقي لما حدث في زوايا وسرائر تلك الزمانات، وماتوفر كذلك من وثائق ومدونات تؤرخ لتاريخ الأزمة بعيدا عن تأويل أصحاب الفرق الناجية.

فهل علل تلك المفارقات وظواهر التردي تكمن في ذواتنا حقا -أي في قراءاتنا المضللة، واستشراء الجهل والتخلف، وفشل قيم الدولة والمجتمع- أم أن لها علاقة إشكالية بالصناعات المريبة للآخر الاستعماري والتبشيري والاستشراقي؟ وهل يمكن أن تكون في سوء تمثلنا قيم التثاقف والتقدم والحضارة وضرورات المستقبل، والكيفية الحقيقية التي نتعامل بها مع موضوعات معقدة لكنها ليست مستحيلة كالهوية والحرية والحوار بين الثقافات، وقبول الآخر المختلف، وإعادة قراءة التاريخ وغيرها؟

هذه الأسئلة العديدة وغيرها وجدت في مقاربات الباحث د.هاشم صالح في كتابه "الانسداد التاريخي..لماذا فشل مشروع التنوير في العالم العربي" الذي أصدرته دار الساقي في بيروت مجالا مفتوحا للتعاطي مع(مثيرات)هذه الأسئلة المعقدة، تلك التي تحولت إلى أسئلة في الوجود والمعنى والهوية والتنمية، إذ صبت الكثير من موجهاتها باتجاه إنتاج عديد الأفكار التي تخص مشكلة الانسداد المعرفي، بوصفها مشكلة إنسانية/ثقافية وحقوقية واجتماعية وسياسية، فضلا عن علاقة هذا الانسداد كمفهوم لأزمة الدولة والجماعات بالإشكالات الحادثة حول قضايا التنوير الفكري والجدل والتنوع والنقد وعلاقة ذلك باشتغالات العقل العربي، ومقاربة أسئلتها الأخرى التي تلامس حيثيات هذه الظواهر وسبل تعاطيها مع القيم الجوهرية لمفاهيم الدولة والعقل والهوية واللغة والدين. فهل العقل السياسي الذي ترسمت تموضعاته المؤسسات التقليدية في السلطة والفقه ودار الأحكام والتشريع قادر على صناعة طروحاته النقدية الفاعلة في مواجهة معطيات ما يحدث حوله؟ وهل النخب الثقافية العربية تملك الآليات والإمكانات التي يمكن من خلالها إعادة إنتاج(ظاهرة القوة) وشرعنة عمليات النقد والبحث عن الأسباب الظاهرة والخفية لفشل مشروع التنوير في مواجهة أزمة انهيار مظاهر العمران الثقافي والسياسي؟ وهل الكثير من مظاهر العقل السياسي العربي بوصفها مظاهر طائفية وأمنية لها علاقة بإنتاج طبائع وظواهر الاستبداد التي وسمت طبيعة السلطة العربية التاريخية والدينية التقليدية والمنغلقة والرافضة لأي خطاب نقدي يسعى إلى المغايرة والتنوير؟ وهل التوصيف المفهومي لنقد العقل العربي كما شيّع له البعض، هو نقد متكامل لكل القوى المسؤولة عن الانسداد، أم هو نقد الاكتفاء القائم على مواجهة ظاهر السؤال؟ وهل قيمومته الضاغطة والمكرسة هي المسؤولة عن تكريس تلك الأزمات التي ظلت تواجه الواقع العربي، وإضعاف القدرات على مواجهة الأزمات والمشكلات المعقدة التي تنخر في جسد البنيات السياسية والثقافية والاجتماعية؟

منذ عقود مبكرة حاول الكثير من علماء الاجتماع والتاريخ العرب والمسلمين والمسيحيين من التنويريين وغيرهم، البحث في معطى هذه الظواهر، وطبيعة آثارها التي تركت الجرح النرجسي للأمة وجماعاتها ينزّ فاغرا فمه، ومكشوفا على نكوصات نفسية لا تملك الاّ ان تستعيد لحظات اشراقها التاريخية التي ارتبطت بنمطية الدولة السياسية من جانب، والكثير من المظاهر الثقافية التي جعلت من المدن حواضن معرفية وثقافية وسياسية فاعلة، والتي تكشف في جوهرها عن خصوصية المدينة، وخصوصية النظام السياسي وطبائع التقاليد الثقافية السائدة ودورها في تعميق قيم الحوار والانفتاح على الثقافات الإنسانية دون أدنى إحساس بالاغتراب.. فضلا عن الكشف عن جوانب مهمة تتعلق بدور النظام السياسي وأنماط سياساته وإدارته في تهيئة عوامل الانسداد الحضاري، وبما يمهد للانهيار السياسي، وهو ماحدث في نظام الدولة العربية الإسلامية التي بدأت علامات انهيارها الثقافي منذ عصر المتوكل العباسي وفرضه سياسات الانسداد الثقافي، والتي خلقت فيها العوامل الثقافية لتفكيك المدينة الثقافية والمدينة السياسية، وبالتالي انهيارها وانهيار مظاهرها القائمة على الجدل والحوار والتثاقف.

## الحروب وانهيار بنية النظام السياسي

مثلما كانت علامات الانهيار الثقافي مؤثرة في التمهيد لانهيار البنية الداخلية للنظام السياسي، فان السياسات العشوائية التي ارتبط بأزمة النظام، وتعقيدات الصراعات العميقة داخل بنية هذا النظام، أسهمت إلى حدّ كبير في ترهيل هذه البنية، وإفقادها قوتها وهويتها، وخلق وجوه أخرى للسلطة السرية بكل مضارها السياسية والأمنية والاقتصادية، خاصة مع تضخم مكوناتها من الأتباع والحرس الخاص والقيان والجواري، واستشراء مظاهر الفساد السياسي والإداري، والذي دفع بالعديد من أصحاب هذه القوة السرية الى السيطرة على مصادر أخرى للقوة والثروة، وبالتالي فأنها أصبحت مصدرا لإضعاف ادارة الدولة، وإفقاد سيطرتها على عقدها السياسي والاجتماعي وسوء تدبريها شؤونها المالية ولتنظيمية ذات التكاليف الضخمة، واتساع ظاهرة الحروب الخاضعة لدوافع جني الثروات والامتيازات، ولتفكيك بنية الدولة العسكرية والسياسية، وهو ما اسهم في فقدان مركزية النظام وقوته الداخلية، وإنهاك الواقع الاقتصادي الذي تضرر جرّاء طول هذه الحروب وعدم ضرورتها، والتي ولدت فيما بعد نقمة اجتماعية داخلية بسبب الخسائر الكبيرة، وعدد القتلى والمعاقين، فضلا عن صعود نجم القوى العسكرتارية التي تحولت إلى وجه آخر للاستبداد الذي أدى إلى صناعة العديد من الأزمات والصراعات الداخلية بين القادة الطموحين، وهو ما تسبب في تفكيك المنظومة الصلبة للدولة، وتسبب في انهيارها السريع، ولاضمحلال مظاهر القوة السياسية والعمرانية التي كانت تزدهي بها. وهناك من وضع الأسباب الخارجية على رأس الأوليات التي أدت إلى انهيار الدولة ونظامها وظاهرتها الثقافية والسياسية، وعلى حد قول الدكتور هاشم صالح فان انهيار هذه الدول -الحضارات التي كانت مشرقة طوال القرون الأولى، والتي انتكست علي نحو مفاجئ- يدعو إلى الاستغراب فعلاً. اذ ان توصيفات ما كان يتداوله الناس عن معنى الحضارة والدولة وقوة النظام، كان يمنح الدولة الإسلامية العربية قوة استثنائية، بسبب حيازتها كل مظاهر التمدين أولا، ومظاهر القوة الحمائية للنظام ثانيا، وسعة الحراك الثقافي والسياسي والاقتصادي في أمصار هذه الدولة التي تستقطب إلى مراكزها ومدارسها وتكاياها المئات من طالبي العلوم والمعارف والدروس في شتى المجالات ثالثا، والتي وصفها المستشرق مارتن كريمر بأنها مراكز ثقافية مهمة، إذ "لو أن جائزة نوبل كانت موجودة في ذلك الزمان-كما يقول- لكانت الغالبية العظمى ينالونها هم من المسلمين".

ان جلّ الأسباب الخارجية التي أدت إلى سقوط وتفكك الحضارة العربية الإسلامية، وانتهاء ظاهرة العمران الثقافي في مدنها وأمصارها تتلازم أساسا مع الأسباب الداخلية التي نخرت الدولة من الداخل وتسببت في ضعفها، وتحولها إلى بيئات صراعية، كالذي حدث خلال الحكم العباسي بين الأمين والمأمون والذي تحولت فيه بغداد الى ساحة صراع كبرى ودامية، فضلا عن مظاهر الصراعات الدائمة مع الدول المجاورة، والذي اضعف الدولة وجعلها أمام سوانح غزوها الخارجي كالذي حدث مع الغزو المغولي، وتفكك المنظومة السياسية الواسعة للدولة الإسلامية الى مجموعة دول تحكمها أقوام وطوائف وجماعات، وهو ما جعل البيئة العربية غير مناسبة لاستقطاب حركة القوافل والتجارية (رأس المال الاستثماري) في لغتنا المعاصرة، أي انه تسبب في إفقار الدولة، وبالتالي تخريب نظامها الخدماتي والترفيهي، وتعرضها إلى فجائع صراعية اثنية وطائفية، وكوارث سياسية كالحروب الداخلية، وكذلك كوارث طبيعية كالأوبئة والفيضانات، وهو ما أدى إلى تحويل الخطوط التجارية عن الطرق المؤدية الى هذه المنطقة باتجاه الغرب خاصة بعد استتباب الأوضاع السياسية في دوله ومدنه بعد سيطرة الافرنجة على اسبانيا وانتهاء مظاهر الحكم العربي فيها.

## كــلام محبّــة

أحمد الصرّاف♦

### وطني والعراق وأنا

أتقن التحدث باللهجة العراقية، ولسبب لا أعرفه أستمتع بالتحدث ورواية النكات بها، خاصة الحادة منها. كما أعرف عن العراق، فنا وتاريخا وأصدقاء أكثر مما أعرف عن أي بلد آخر، باستثناء لبنان. وأعتقد أن امتداد الكويت الطبيعي هو باتجاه الشمال، وليس الجنوب، التي قدم منها، على مدى قرون، نصف سكان الكويت تقريبا، ولن يعودوا لها، فعيونهم على الشمال!

كان لا بد من هذا التمهيد قبل الدخول في صلب المقال، عن علاقة الكويت المتوترة "تاريخيا" بالعراق، وهو التوتر الذي لم يكن يوما في صالح البلدين، وبالذات العراق، وخاصة في الفترة الأخيرة. وهنا نجد أن من يحاول إثارة الضغائن، من الطرفين، والتحدث عن خلافات وثارات ومؤامرات لا ينطلق من حرصه على مصلحة وطنه بقدر ما يتحدث باسم طرف آخر!! وهذه الاتهامات سوف تعيد البلدين للمربع الأول، الذي اعتقدنا يوما أننا خرجنا منه، وربما هذا ما يهدف له هؤلاء، وعلى عقلاء البلدين إسكات الأصوات النشار، والتفرغ للتنمية، فالكويت لا يمكن أن تأمن جانب العراق طالما لم يستقر ويزدهر اقتصاديا وينعم بديمقراطية حقيقية، والعراق دولة كبيرة في المنطقة وذات موارد طبيعية ومالية وبشرية هائلة لا تقارن بقدرات الكويت وحجمها، وبالتالي فإن أية محاولة لتصوير الكويت وكأنها المعتدية على العراق وحقوقه وأراضيه، وانه يتآمر باستمرار عليه وعلى استقراره مسألة لا يمكن بلعها بسهولة، وحتى لو صح ذلك فيجب وضعه في إطاره الزمني، ولا يجب أن تستمر معاناة الشعبين بسببه، ولو نظرنا لبحور الدماء التي سالت بين دول كبرى، وما أصبح يجمعها الآن من صداقة وتفاهم، لأسفنا لوضعنا، بالرغم من أننا أكثر قربا وفهما ومحبة لبعضنا مقارنة بهم!

كما تأخذ بعض الأطراف في العراق على الكويت، خلال حرب العراق وإيران، وقوف الكويت مع نظام صدام، ويعتقدون أن هذا الدعم المالي واللوجستي أطال أمد الحرب، وتسبب في موت الكثيرين، وهذا ربما يكون صحيحا، ولكن من جانب آخر لو اختارت الكويت وقتها الوقوف على الحياد لجاء فريق آخر، أو نفس الفريق، ليوجه اللوم لها على حيادها وامتناعها عن دعم العراق، والادعاء بأن هذا ساهم في إضعاف العراق، وإطالة أمد الحرب والتسبب في زيادة عدد ضحايا الطرفين Damned if you do، damned if you don’t (ملعون إن فعلت، ملعون إن لم تفعل) وبالتالي نحن بحاجة لنشر المحبة بيننا، وأن ندع حل الأمور الشكلية بين الطرفين للأجهزة الفنية، فالعراق ليس بحاجة لمنافسة الكويت، ولا الكويت قادرة أو راغبة في أن تكون من نفسها نداً للعراق أو قوة كبرى في المنطقة، فلا عمقها ولا حجمها ولا قدراتها تسمح لها بذلك، وإن على العراق تفهم ذلك والعمل لما فيه خير الطرفين، فآفاق التعاون يمكن أن تصل لعشرات المليارات سنويا، وهذه هي التي ستكرس السلام الدائم بين الطرفين، وليس الاتفاقيات الدولية، ويجب ألا ندع فئة حاقدة هنا أو متآمرة هناك تقضي على حلم السلام والرخاء بين البلدين.

♦ كاتب كويتي
المقال ينشر بالتزامن مع صحيفة القبس

## كاريكاتير




عادل صبري

# هم حكّموه فاستبدّ تحكّماً

ماجد الشمري

**الحاكم العربي القصاب - كما يسميه نزار قباني - لا يمكن أن يتخيل أنّ قطيعه سيتمرد عليه يوماً فيطرده بالركل أو بالنطح أو بالدفرات . فهو دائماً مطرب ثمِل، مستأنس بثناء شعبه وإطرائه له ما دام يمسك بالسلطة والصولجان ، وبيده السكين والساطور.**

أما جلاوزته الغلاظ الشداد الذين استخدمهم للقتل والذبح فهم قادرون على الدوام على نحر أي كبش يشاكس أو خروف يناطح ، وهكذا يصل به الوهم أحياناً أن بإمكانه أن يحبس حتى دعاء المصلين الوادعين من (قطيعه) من الوصول إلى السماء – كما صرح شاه إيران قبل سقوطه بأيام .

أما عميد الحكام العرب ، وملك ملوك أفريقيا ، وإمام المسلمين – كما سمّى نفسه يوماً وبلا حياء – فإنه كان يتصور أن ترسانته الحربية ورجال جيشه وطياريه سيبقون معه إلى آخر لحظة . وما درى أن الأيام دالت ، وإن الفلك دوار ، وإن الأوامر صدرت بترحيله بقرار دولي أو محلي لا فرق .

نعم ، يمكن أن تكون طاعة الشعب وانصياعه له هما سبب تضخّم هذه الأوهام لديه وتمكّنها منه ، أي إن الذل والهوان اللذين زرعهما في نفوس أبناء شعبه ، وإنْ تحت بطشه وجبروته هما اللذان يشجعانه على مواصلة استهتاره وطغيانه ، ولكن إرادة الشعوب تبقى أقوى من الطغاة، وإنها بالتأكيد لا تسمح ببقاء الذل والهوان مستمرين إلى ما لا نهاية.

ففي كل شعب نخبة أو جماعة تأبى الذل وترفض الاستعباد مهما كلف الثمن .

المؤلم المؤسف أن ضريبة إقصاء الطاغية تصير مكلفة كلما امتد به الزمن ، ولقد ثبت بما لا يقبل الشك أن زواله مستحيل بدون معجزة سماوية أو خارقة أرضية . هكذا كانت قصة فرعون وموسى والبحر ، وقصة النمرود وإبراهيم والنار ، وقصة الطوفان وقوم نوح ، وعيسى ومعجزاته ، ومحمد وآياته .

أما الحكام العرب ، وبعد انتهاء عصر المعجزات فقد جاءتهم (الخوارق) الأرضية عبر دعم خارجي قلَب عاليها سافلها . أو خلاف عائلي لم يكُن بالحسبان أو مرض عضال لا شفاء منه ، أو حادث مدبّر لا يخطر ببال أحد ، أو انقلاب عسكري يقودُه صديق القصاب ورفيق دربه وبلا مقدمات . وقد تأتي الخارقة أيضاً عبر شك غير مسبوق بين حليفين لا تنفع في تبديده مواثيِق مبرمة أو أقسام غليظة . فتدور الدوائر ويستيقظ الحاكم من سكرة حكمه ليكتشف أن الذي كان يهتف له بالأمس :(بالروح بالدم نفديك يا صدام) يهتف اليوم بأعلى صوته :(كلا كلا يا ظالم) ثم يصرخ بعدها :(ارحل ارحل يا . . . .) وبلا تردد أو تهيب .

والذي ينظر إلى ما بات يسمى (ربيع الثورات العربية)، يرى اليوم صورة واضحة من صور الخوارق والكوابيس التي لم يكن يتصورها الحكام يوماً بعد أن أمضى معظمهم ثلاثين أو أربعين عاماً في حكم قطعانهم ، وهم ثملون مخدّرون .

كانوا لا يسمعون إلاّ تصفيق الهتيفة ومدح المداحين ، بل لا يسمحون بأن يسمعوا غير ذلك، ولو كلّفهم سماع هذا المديح استبدال آذانهم أو استبدال شعوبهم . ترى هل سيستفيد البدلاء من هذه العبر أم إنهم سينهجون نهج أسلافهم فتدور عليهم الدوائر مرة أخرى ؟!

الأهم من ذلك : هل ستستفيد الشعوب مما مرّ عليها وتكفّ عن منهج الثناء اللزج والمديح الكاذب ، أم إنها ستبقى بحاجة لأن تتذكر قول الشاعر :

ما كان كسرى إذ طغى في قومه
إلاّ لما خُلقوا له فعّالا
هم حكّموه فاستبدّ تحكّماً
وهمُ أرادوا أن يصول فصالا
لكنّ خفض الأكثرين جناحهم
رفع الملوك وسوّد الأنذالا